البعد الديني في التجربة الشعرية لابن مسايب

د/ آمال بن صافي*
المركز الجامعي مغنية (الجزائر)
bensafy13@gmail.com

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2025 / 11 / 10	2025 / 12 / 21	2025 / 12 / 22

مُلخّص البحث

يهدف البحث إلى استكشاف البعد الديني في شعر محمد بن مسايب، الشاعر الجزائري التلمساني (القرن 18م)، مع التركيز على الطابع الصوفي والمديح النبوي في قصائده الملحونية. توصل البحث إلى أن ابن مسايب يمزج اللغة العشقية بالرموز الصوفية، مستلهمًا القرآن والسنة، كما في قصائد "يا الوحداني" و"بدر الدجى". يعكس شعره التوازن بين العاطفة والروحانية، مساهمًا في نشر التصوف والهوية الإسلامية الشعبية عبر لغة عامية مكثفة دراميًا.

الكلمات المفتاحية: التجربة الشعرية، البعد الديني، ابن مسايب، الشعر الملحون.

Abstract

This research aims to explore the religious dimension in the poetry of Mohamed Ben Messaïb, the Algerian poet from Tlemcen (18th century), with a focus on the Sufi character and prophetic praise (madīḥ nabawī) in his malḥūn poems. The study concludes that Ben Messaïb interweaves the language of love with Sufi symbols, drawing inspiration from the Qur'an and the Sunnah, as exemplified in poems such as "Yā al-Waḥdānī" and "Badr al-Dujā". His poetry reflects a balance between emotion and spirituality, contributing to the spread of Sufism and popular Islamic identity through a vernacular language rich in dramatic intensity.

Keywords: poetic experience, religious dimension, Ben Messaïb, malḥūn poetry

* الاسم واللقب والبريد الإلكتروني: د. آمال بن صافي bensafy13@gmail.com

مقدمة

يُعَدّ شعر الملحون أحد أبرز الأشكال التعبيرية التي عرفتها الجزائر ، حيث جمع بين البعد الجمالي والفني والبعد الروحي والديني، مما جعله وسيلة للتثقيف والتوجيه المجتمعي. ومن بين أعلامه يبرز الشاعر ابن مسايب الذي ارتبط اسمه بالمجال الصوفي والمديح النبوي، فشكّلت أشعاره تجسيدًا حيًّا للقيم الإسلامية ومجالًا رحبًا لتأملات روحية وأخلاقية عميقة. إنّ البعد الديني في التجربة الشعرية لابن مسايب لا ينحصر في الجانب الوعظي فحسب، بل يتجاوز ذلك ليعكس رؤية متكاملة للعالم، قائمة على التوحيد، والتوبة، والزهد، والمحبة النبوية، والالتزام بالأخلاق الإسلامية، وهو ما يمنح شعره بعدًا تربويًا يعيد ربط المتلقي بقيمه الدينية ويُسهم في تعزيز الهوية الروحية والجماعية. وانطلاقًا من ذلك يطرح المقال الإشكالية التالية :كيف تجلّى البعد الديني في التجربة الشعرية لابن مسايب، وما هي أهم القيم الدينية التي عبّر عنها، ثم ما الوسائل الفنية التي اعتمدها لترسيخ هذه القيم في وجدان المتلقي؟ وتتفرع عن هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات الفرعية من قبيل: ما السياق التاريخي والاجتماعي الذي أسهم في صياغة التجربة الدينية للشاعر؟ وكيف تجلّت قيم التوحيد، والمحبة النبوية، والتوبة في شعره؟ وما الخصائص الفنية والبلاغية التي وظّفها للتعبير عنها؟ ومن ثَمّ يسعى البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف أبرزها: الكشف عن حضور البعد الديني في شعر ابن مسايب، إبراز القيم الروحية والأخلاقية التي ميّزت تجربته، تحليل الآليات الفنية التي اعتمدها، والإسهام في إعادة الاعتبار لشعر الملحون باعتباره حاملًا للهوية الدينية والثقافية المغربية.فابن مسايب له العديد من القيم الدينية، وذلك لأنّه في الفترة التي عاش فيها كانت له مكانته في المجتمع فأحسن تثبيت انتمائه الديني، فكذا يعدّ داعيّة إلى مقومات الشعب والتي منها الدين الإسلامي.

1. مفهوم القيم

القيم ليست مجرد مبادئ موروثة تحدد الصواب والخطأ، بل هي نتاج تفاعل الإنسان مع محيطه وما يعيشه من تجارب شخصية وجماعية. فهي لا تُكتسب فقط عبر الأسرة أو المدرسة، وإنما تُعاد صياغتها باستمرار من خلال الاحتكاك بالواقع الاجتماعي والثقافي المتغير. ومن هذا المنطلق، يمكن النظر إلى القيم كأدوات ديناميكية تساعد الأفراد على التكيف مع التحديات وإعادة تقييم مواقفهم وسلوكياتهم. كما أنّ دورها لا يقتصر على ضبط العلاقات الاجتماعية أو الحفاظ على النظام، بل يمتد ليشمل تحفيز الإبداع، وتعزيز الاختلاف، وتوسيع إمكانيات التعبير عن الهوية الفردية والجماعية.

فتعرّف القيم بأنّها "....تصوّرات توضيحيّة لتوجيه السلوك في الموقف الانفعالي، تحدّد أحكام القبول أو الرفض، تنبع من التجربة الاجتماعيّة، وتتوحّد بها الشخصية فهي عضو مشترك في تكوين البناء الاجتماعي، لأنّها تتضمّن نظام الجزاءات المرتبطة بنظام الأدوار في البناء الاجتماعي، كما أنها تكون جزء من لبّ الشخصية الاجتماعيّة للفرد، لأنّها حصيلة أو نتاج عملية التنشئة الاجتماعيّة، والقيّم قد تكون واضحة تحدّد السلوك تحديدا قاطعا، أو غامضة متشابهة تجعل الموقف ملتبسا مختلطا"[1].

يتضح من هذا القول أنّ القيم ليست مجرد مبادئ نظرية، بل هي تصوّرات اجتماعية موجِّهة للسلوك، يلتجئ إليها الفرد عند اتخاذ المواقف، خاصة في حالات الانفعال أو التوتر، حيث تمنحه القدرة على إصدار أحكام بالقبول

أو الرفض. فهي تنبع من التجربة الاجتماعية ومن عملية التنشئة التي يمر بها الإنسان داخل الأسرة والمدرسة والمجتمع، لتصبح جزءًا من شخصيته ولبّ هويته الاجتماعية. كما تُعدّ القيم عنصرًا مشتركًا في بناء المجتمع لأنها ترتبط بنظام الأدوار وما يتبعه من جزاءات اجتماعية، فتضمن بذلك التماسك والانسجام بين أفراده. غير أنّ وضوحها ليس دائمًا على وتيرة واحدة؛ فقد تأتي صريحة صارمة تحدد السلوك بشكل قاطع، مثل قيمة الصدق أو الأمانة، وقد تكون غامضة وفضفاضة، فتجعل الموقف ملتبسًا وتفتح المجال لتأويلات متعددة.

فهي "الأحكام العقليّة والوجدانيّة والمعتقدات المتعلّقة بفكرة أو موضوع أو موقف معيّن، وهي تعدّ موجهات عامّة لسلوك الأفراد، فهي معايير للسلوك الفردي والاجتماعي في الحياة.[2] هذه العبارة تشير إلى أن القيم ليست مجرد أفكار نظرية أو مبادئ مجردة، بل هي في جوهرها أحكام عقلية وعاطفية ومعتقدات يكوّنها الإنسان تجاه موضوعات أو مواقف مختلفة في حياته. فهي تنبع من تفاعل العقل (من خلال التفكير والتحليل) مع الوجدان (من خلال المشاعر والانفعالات) إضافة إلى المعتقدات الراسخة التي يؤمن بها الفرد.

وبما أن القيم تتأسس على هذه الأبعاد الثلاثة، فإنها تتحول إلى بوصلة توجه السلوك، إذ تحدد ما يعتبره الإنسان صحيحاً أو خاطئاً، وما يقبله المجتمع أو يرفضه. ومن هنا تُعد القيم معايير مرجعية تضبط علاقة الفرد بنفسه وبالآخرين، وتضمن قدراً من الانسجام في الحياة الاجتماعية.

أهمية هذا التصور تكمن في إبراز الطابع الشمولي للقيم؛ فهي ليست نتاج العقل وحده ولا العاطفة فقط، بل هي مزيج منهما مع الإيمان والمعتقد، مما يمنحها قوة في التأثير وصموداً أمام التغيرات. كما أن النظر إليها كـ"موجهات عامة" يعني أنها لا تفرض على الأفراد سلوكاً واحداً بعينه، بل تمنحهم إطاراً عاماً للتحرك واتخاذ القرارات، مع ترك مساحة للاجتهاد الشخصي حسب السياق. وهذا ما يجعل القيم عنصراً أساسياً لتحقيق التوازن بين حرية الفرد ومتطلبات الجماعة.

فالقيم تمثل منظومة من المعايير والمبادئ العامة التي تتسم بقدر من الثبات والاستمرارية، إذ تعكس الأسس العقدية والأخلاقية التي يقوم عليها المجتمع. ويحرص المربّون على ترسيخ هذه القيم في وجدان التلاميذ من خلال ما يتضمنه المنهاج الدراسي من معارف وأنشطة، باعتبارها النموذج الأمثل الذي ينبغي للأجيال الصاعدة الاقتداء به والسير على نهجه. ولا تقتصر أهمية هذه القيم على كونها ضوابط سلوكية فحسب، بل إنها تُعد مرجعاً أساسياً يسهم في توجيه الشخصية المتعلّمة، وتكوين وعيها، وصياغة أنماط تفكيرها وتفاعلها مع الآخرين. ومن خلال غرسها في الميدان التربوي، تتحقق الغاية الأسمى للتعليم المتمثلة في بناء إنسان متوازن، قادر على الاندماج في المجتمع، والمساهمة في استقراره وتقدمه، بما ينسجم مع الهوية الثقافية والدينية ويستجيب لمتطلبات العصر[3].

إذن نقول بأنّ القيم الدينية من المرتكزات الجوهرية التي يقوم عليها الوعي الإنساني والبناء الاجتماعي، فهي تمثل المبادئ والتوجيهات المستمدة من العقيدة، والتي تهدف إلى تهذيب سلوك الفرد وضبط علاقاته بذاته وبالآخرين. وتشكل هذه القيم منظومة متكاملة تجمع بين البعد الروحي والأخلاقي والاجتماعي، فتغرس في الإنسان معاني الرحمة، والصدق، والتسامح، والعدل، والإحسان، بما يجعلها إطاراً موجِّهاً للحياة اليومية ومصدراً أساسياً للاستقرار والتماسك داخل المجتمع. ولا يقتصر دورها على تحقيق الانسجام الأخلاقي، بل يتعداه إلى تعزيز الهوية

الجماعية وصون المرجعية الحضارية والثقافية للأمة، مما يبرز أهميتها في صياغة شخصية متوازنة قادرة على مواجهة تحديات العصر دون الانفصال عن جذورها العقدية والروحية.

2.أبرز القيم الدينية في شعر ديوان عبد الله ابن مسايب

يُعدّ الشعر مرآة صادقة تعكس المنظومة الفكرية والقيمية للمجتمع، ولا سيما حين يتصل بالبعد الديني الذي يُعدّ أحد أهم الروافد التي تغذي التجربة الشعرية وتمنحها عمقاً روحياً ورسالة سامية. وقد شكّلت القيم الدينية محوراً أساسياً في شعر عبد الله بن مسايب، حيث وظّف الشاعر معجمه الشعري لتجسيد معاني الإيمان والتقوى، والتعبير عن مفاهيم الأخلاق والفضيلة، والدعوة إلى الالتزام بتعاليم الدين في السلوك الفردي والجماعي. ومن خلال ديوانه، تتجلى القيم الدينية كطاقة إلهامية تبث في النصوص بعداً وجدانياً وروحياً، يعكس وعي الشاعر برسالة الأدب في الإصلاح والتوجيه، ويبرهن على دور الشعر في ترسيخ المرجعية العقدية والأخلاقية داخل المجتمع.

2.1.التوبة والتوسل لله تعالى

يتجلّى في ديوان ابن مسايب حضور واضح لموضوع التوسل مقارنة بغيره من الموضوعات، إذ خصّص الشاعر قصيدة كاملة يناجي فيها الله تعالى ويتوسل برسوله الكريم. ويعكس هذا التوجه الوعي العميق بحقيقة الإنسان الذي قد يقع في الخطأ، مصداقاً لقول النبي ﷺ: "كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون". فالتوبة في جوهرها هي الإقلاع عن الذنوب والمعاصي والرجوع الصادق إلى الله بالإيمان والإخلاص، وهي السبيل الذي يبعث في النفس راحة وطمأنينة ويزكّي القلب من شوائب الدنيا.

يقول ابن مسايب في قصيدته "لك نشكي"[4] :

لك نشكي بأمري لأنّـــــــي -يا الوحداني- يا الله نطلبك تعفو عليّـــــا
لا تحافني عمّا فات في زمانـي ليك نتوسّل ياأحمد بو الرقيّة
يا الله طلبتـــــــــك تعفو عليّـــــــا
يا الله أنا عبـــــــدك والعفو منّـــــك نرجـــــاه
يا نبي نتوسل لـــــك والكتاب ومن يقـــــــــراه

هذه الأبيات تعكس الجانب الوجداني العميق في تجربة ابن مسايب الشعرية، إذ يظهر التوسل كقيمة دينية محورية تترجم علاقة العبد بربه، وتكشف في الوقت نفسه عن وعي الشاعر بضعف الإنسان وحاجته الدائمة إلى المغفرة والرحمة. فالشاعر حين يوجّه خطابه إلى الله تعالى ورسوله الكريم، فإنه يجسد صدق التوجه الروحي والتعبير عن حالة الانكسار والافتقار التي يعيشها المؤمن أمام عظمة الخالق. كما أن استحضار فكرة التوبة هنا يمنح النص بعداً إصلاحياً وأخلاقياً؛ فالتوبة ليست مجرد ترك للذنوب، بل هي تجديد للعهد مع الله، وإحياء للروح، وتزكية للقلب. ومن هذا المنطلق، يتحول شعر ابن مسايب إلى وسيلة تربوية ووعظية، تجمع بين الحس الجمالي للقصيدة ووظيفتها التوجيهية، فيغدو شعره أداة لغرس القيم الدينية وإبراز دور الأدب في تهذيب النفوس وإصلاح المجتمع.

ويقول أيضا [5]:

طالبك تعفو عنّـــــي يا عظيـــــــم الجبـــاروت
تب عنّي وهديـــــني للطريق وقـــــيل القـــــوت
بحرمة أحمد تبّتنـــي علـــى الشهادة عند المـــــوت

في هذه الأبيات يتجلّى البعد الديني العميق في شعر ابن مسايب، حيث يعبّر الشاعر عن حالة الانكسار والافتقار إلى رحمة الله تعالى، متوسلًا بالعفو والمغفرة من "عظيم الجبروت". فهو لا يكتفي بطلب الصفح، بل يقرن ذلك برجاء الهداية إلى الطريق المستقيم والرزق الحلال، مما يعكس وعيه بأن التوبة الحقيقية تقوم على الجمع بينإصلاح الروح واستقامة السلوك. ويبلغ الدعاء ذروته في البيت الأخير حين يتوسل الشاعر بحرمة الرسول الكريم ﷺ أن يثبته الله على الشهادة عند الموت، وهو أسمى ما يرجوه المؤمن. وتكشف هذه الأبيات عن نزعة صوفية صادقة، تبرز من خلال لغة التضرع والإلحاح في الطلب، واختيار الألفاظ الموحية بالرهبة والخشوع، لتؤكد أن شعر ابن مسايب ليس مجرد تعبير جمالي، بل هو رسالة إيمانية تهدف إلى تهذيب النفس وإيقاظ الوجدان.

ويقول ايضا[6]:

يا الله اقبل عـــــــذري كنت غرّي ما نعرفـــــــــش
عصيت في حالة صغـــري تبت دروق مـــا نرجعـــــــش
خفت من ليلة قبـــــري ليلة الطاعة والوحـــــــــش

في هذه الأبيات يواصل ابن مسايب نهجه في المناجاة الصادقة، حيث يعبّر عن ندمه العميق على ما ارتكبه من ذنوب في مرحلة الغرور والجهل، مستفتحًا دعاءه بالاعتراف والاعتذار إلى الله تعالى. ففي البيت الأول يظهر الشاعر روح التائب المقرّ بضعفه وضلاله، أما في البيت الثاني يؤكد توبته الصادقة، معلنًا عزمه على عدم العودة إلى المعصية بعد أن أدرك قيمة التوبة وأثرها في تهذيب النفس. ويأتي البيت الثالث ليكشف عن الخوف الوجودي الذي يسكنه، إذ يستحضر لحظة القبر بما تحمله من رهبة ووحشة، فيجعل من هذه الصورة القوية دافعًا للثبات على الطاعة والرجوع إلى الله. وتبرز هذه الأبيات النزعة العاطفية والوجدانية القوية، حيث يمتزج الاعتراف بالذنب بالخوف من المصير، مما يمنح النص بعدًا إنسانيًا صادقًا يجعل القارئ يتأثر به وجدانيًا وروحيًا في آن واحد.

ويواصل في مقطع آخر[7]

يا الله الطـــــف بالعبـــد ليلة أن يمشي وحـــــــــده
في القبور وتحت اللّحـــــد يرجى رحمة سيـــــــــــده

في هذه الأبيات يعبّر ابن مسايب عن أسمى معاني التضرع والخوف من المصير بعد الموت، حيث يناجي الله تعالى طالبًا لطفه ورحمته في اللحظة التي يسير فيها العبد وحيدًا نحو قبره. فالبيت الأول يصوّر رهبة الوحدة عند مفارقة الدنيا، تلك اللحظة التي ينقطع فيها المرء عن كل سند بشري، فلا يبقى له إلا ما قدم من عمل. أما البيت الثاني فيجسد مشهد القبر وما يحمله من ضيق ووحشة، ليضع الإنسان أمام حقيقة محتومة لا مفر منها، وفيها لا ملجأ إلا برحمة الله تعالى وفضله. ومن خلال هذه الصور القوية، يبرز البعد الوعظي في شعر ابن مسايب، حيث يوظف

لغة وجدانية بسيطة لكنها مشحونة بالإيحاءات الروحية، ليذكّر القارئ بحقيقة الفناء وضرورة الاستعداد للآخرة بالإيمان والعمل الصالح.

ونجده يقول في قصيدة أخرى بعنوان: "الحرم يا رسول الله"[8]:

الحرم يا رسول اللـــــــــه الحرم يا رسول اللـــــــــه
خيفان جيت عندك قاصد الحرم يا رسول اللـــــــــه
خيفان جيت عندك قاصد يا صاحب الشفاعة الأمجد

في هذه الأبيات يعبّر ابن مسايب عن نزعة روحية صافية يغلب عليها طابع التوسل والرجاء، إذ يتوجه بخطابه مباشرة إلى الرسول ﷺ مستعطفًا ومتوسلًا بعبارة مكررة "الحرم يا رسول الله"، وهي تكرار يحمل دلالتين الأولى إظهار شدة الافتقار والرجاء، والثانية إبراز الانكسار النفسي والالتجاء إلى مقام النبي الكريم. ويُظهر الشاعر خوفه من ذنوبه وضعفه الإنساني بقوله "خيفان جيت عندك قاصد"، ليجعل من قدومه إلى الرسول تعبيرًا عن البحث عن الأمان الروحي والشفاعة العظمى. ويختم بتوكيد مكانة النبي ﷺ بصفته "صاحب الشفاعة الأمجد"، وهو وصف يرسّخ القيمة العقدية المرتبطة بالرجاء في شفاعة الرسول يوم القيامة. وهكذا اتكشف الأبيات عن شعر وجداني يمزج بين صدق العاطفة وعمق الإيمان، موظفًا أسلوب التكرار والنداء ليزيد النص حرارة وإلحاحًا في طلب الرحمة والشفاعة.

ويواصل في قصيدته ويقول[9]:

عاري عليك يابا القاســـم صاحب اللّواء والخاتـــــم
راني على فعالي نـــــادم ما درت باش نلقى اللـــــه
ما تبت ما قريـــــت اللازم ابليس غرني بهـــــــواه
ابليس غرني شيطانـــــي في شبكة الذنوب ارمانـــي

في هذه الأبيات يرسم ابن مسايب لوحة وجدانية صادقة، يغلب عليها الاعتراف بالذنب والندم، في إطار من التوسل إلى الرسول ﷺ. ففي البيت الأول يخاطب الشاعر النبي بلقب "أبا القاسم"، مستحضرًا مكانته الشريفة كصاحب اللواء والخاتم، وكأنه يطلب شفاعته ورحمته. ثم ينتقل إلى الاعتراف الصريح بندمه على أفعاله الماضية مقرًّا بعجزه عن إعداد الزاد الذي يلاقي به الله تعالى، وهو تصوير بليغ لحالة الغفلة والتقصير .وفي الأبيات الموالية يبرز الوعي العميق بصراع الإنسان مع غواية الشيطان، حيث يعترف الشاعر بأنه لم يتب التوبة الكاملة، ولم يؤدِّ ما "يلزم" من الطاعات، فوقع أسيرًا لمكائد إبليس الذي أوقعه في شبكة الذنوب. إن استخدام صور مثل "شبكة الذنوب" يعكس البعد البلاغي في النص، حيث تتحول المعصية إلى فخ أو قيد يحاصر الإنسان.

وهكذا، تجمع الأبيات بين الاعتراف الصريح بالخطأ وطلب الشفاعة واستحضار العدو الأزلي للإنسان (الشيطان، مما يمنح النص قوة وجدانية وعمقًا تربويًا، إذ يجعل القارئ يتأمل في ضعف النفس البشرية وحاجتها الدائمة إلى التوبة والرجوع إلى الله.

2.2. ذكر أسماء الله الحسنى وصفاته

قال الله تعالى:" **وَلِلَّهِ الأَسمَاءُ الحُسنَى فَادعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلحِدُونَ فِي أَسمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**"[10]

حضر ذكر أسماء الله الحسنى وصفاته في شعر ابن مسايب بوصفه مظهرًا من مظاهر التعلق بالخالق واستشعار عظمته، فقد لجأ الشاعر إلى توظيف هذه الأسماء والصفات في سياق مناجاته وتضرعه، بذلك عمق إيمانه وصدق توجهه الروحي. ويُعد هذا الحضور أكثر من مجرد عنصر زخرفي لغوي، إذ يحمل بعدًا وجدانيًا وتربويًا، حيث يستمد الشاعر من أسماء الله وصفاته معاني الرحمة، والمغفرة، والقدرة، واللطف، ليقوي بها رجاءه ويجدد أمله في نيل الغفران. وهكذا تتحول القصيدة عند ابن مسايب إلى مجال للتذكير بجلال الله وكماله، ولتعميق أثر القيم الدينية في المتلقي فنجده يقول[11]:

بسـم العظيـــم الدّايم نبدا بالمعيـــــــن

منشي العوالـــــــــم القهـّــــــــار

يفتتح ابن مسايب قصيدته بتمجيد أسماء الله الحسنى وصفاته الجليلة مثل "العظيم" و"الدايم" و"القهّار"، تأكيدًا منه أنّ المطلع لا يليق أن يكون إلا بذكر الخالق، ومُبدع الكون ومدبّره. وهذا الاستهلال يضفي على النص مسحة من الجلال والروحانية، ويعكس عمق ارتباط الشاعر بعظمة الله وقدرته اللامحدودة. ويقول في قصيدة أخرى[12]:

بسم الله الكريـــــــم نبدأ نشـــــــادي

مكـــوّن كل كاينـــــة يا الفاهـــــــــم

في هذين البيتين يستهلّ ابن مسايب قصيدته بذكر اسم الله الكريم، ليجعل افتتاح إنشاده مقرونًا بصفة من صفاته السامية، فيؤكد أن الله هو المكوّن لكل كائن والمرجع الأوحد لكل وجود. ويأتي وصفه بـ"الفاهم" ليجسّد يقين الشاعر بإحاطة علم الله بكل خفيّ وجليّ، وبقدرته على إدراك بواطن الأمور وظواهرها، وهو ما يعكس عمق الرؤية الإيمانية التي يستند إليها النص. إن هذا الاستهلال يمنح الأبيات مسحة من الروحانية والخشوع، ويضفي عليها صدقًا وجدانيًا ينبع من صفاء التجربة الدينية للشاعر، بحيث يتحوّل المطلع إلى مدخل تعبّدي يهيّئ المتلقي للانخراط في أجواء وجدانية قائمة على التسليم لجلال الله وكمال صفاته.

ويقول أيضا في قصيدة أخرى[13]:

يهديك الـــــــــــواحد الوحيـــــــــد

في خروج الرّوح تحضر في قلبك هـــــــــي

في هذين البيتين يجسّد ابن مسايب البعد الإيماني في أرقى معانيه، إذ يفتتح بالتأكيد على أن الهداية الحقة لا تصدر إلا عن "الواحد الوحيد"، في إشارة واضحة إلى عقيدة التوحيد وتنزيه الله عن الشريك والمثيل. ويأتي البيت الثاني ليقدّم صورة وجدانية مؤثرة للحظة الاحتضار، حيث يتمنى الشاعر أن يكون ذكر الله حاضرًا في قلب الإنسان وهو يواجه خروج الروح، بما يمنح تلك اللحظة العصيبة معنى من الطمأنينة والسكينة. ومن خلال هذا التصوير، يبرز البعد الوعظي في شعره، إذ يذكّر بالمصير المحتوم ويحثّ على الثبات على الإيمان والتمسّك بذكر الله حتى اللحظة الأخيرة، ليجعل من استحضار الأسماء الحسنى زادًا روحيًا ووسيلةً للتقوى والاستعداد للآخرة.

وبواصل في نفس القصيدة[14]:

أقبض مفتاح جنّة الخلـــــــــــــد في يدك
وطلبك مـــــــــولاك في العفـــــــــــو
الرّحمن الرّحيم يجعـــــــــل لك مسلـــك
في الضيـــــق ميـــــن تتوقـــــف
واحد سبحانـــه مجيـــــد دايـــم
باقـــتي قـــديم مخـــالف الاشيـــــاء
قـــــادر مقتـــــدر مـــريـــــد
سميع بصير عالم بذاته حيـــــــه

في قوله: "أقبض مفتاح جنة الخلد في يدك وطلبك مولاك في العفو"، يبرز ابن مسايب البعد الوعظي من خلال تذكير الإنسان بمصيره الأخروي، حيث يجعل مفتاح الجنة في يد المؤمن الراجع إلى مولاه، طالبًا عفوه وغفرانه. وهنا يحضر اسم المولى بما يحمله من دلالة على الرعاية والقدرة، ليؤكد أن النجاة لا تتحقق إلا برحمة الله. أمّا في قوله: "الرحمن الرحيم يجعل لك مسلك في الضيق مين تتوقف"، فيستحضر الشاعر اسمين عظيمين من أسماء الله الحسنى هما الرحمن والرحيم، ليرسّخ معنى التوكّل على الله في الملمات.

فالرحمة الإلهية هي المخرج من الضيق، وهي التي تمنح الإنسان الطمأنينة والرجاء عند الشدائد، فيتحوّل النص إلى تعبير وجداني عن الثقة بلطف الله ورعايته.ويواصل الشاعر تأكيده لعقيدة التوحيد في قوله: "واحد سبحانه مجيد دايم باقي قديم مخالف الأشياء"، حيث يجمع بين التنزيه والتقديس. فالله واحد لا شريك له، مجيد في كماله، دائم لا يزول، قديم بلا ابتداء، ومخالف لكل ما سواه. وهنا يبرز البعد العقدي الصريح الذي يستند إلى التصور الكلامي والاعتقادي في الإسلام، ليجعل من البيت تلخيصًا لمبادئ الإيمان.

أما البيت الأخير: "قادر مقتدر مريد سميع بصير عالم بذاته حيه"، فهو أشبه بمدخل إلى علم الصفات، حيث يسرد ابن مسايب صفات القدرة والمشيئة والعلم والحياة. فالقدرة المطلقة والمشيئة الحرة مقرونتان بالعلم الشامل والسمع والبصر، ليجسّد الشاعر بذلك كمال الذات الإلهية وصفاتها العُليا. وهنا تتحقق الغاية من توظيف أسماء الله الحسنى في الشعر، إذ تتحول من مجرد ذكر إلى بناء عقدي وروحي يرسّخ في وجدان السامع عظمة الخالق وجلاله.

2.2. ذكر أسماء من سور القرآن الكريم

يُعَدّ القرآن الكريم رسالة موجَّهة إلى الناس لعبادة الله وحده لا شريك له، أنزله الله تعالى على رسوله محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وجعل في كلّ سورة من سوره معجزة تتضمّن أسرارًا وفضائل. كما أنّ آياته شفاء لما في الصدور وطمأنينة للقلوب. وقد وظّف الشاعر ابن مسايب أسماء الله الحسنى في قصائده، مستثمرًا دلالاتها الروحية والعقدية، متقرّبًا بها إلى الله سبحانه وتعالى، ومضيفًا على شعره مسحة إيمانية عميقة.

فنجده يقول[15]:

بجاه سورة الملك وسورة طه

وأم الكتاب والسجدة والفرقان

أحفـــــظ طـــــه وياسين

وافهم قولي نحدثك وانصت لي

في هذين البيتين يوظّف ابن مسايب أسماء عدد من السور القرآنية مثل الملك وطه والفاتحة (أمّ الكتاب) والسجدة والفرقان، ليجعل منها وسيلة للتوسل والتبرك، إذ إنّ ذكر السور بما تحمله من قداسة ودلالات إيمانية يضفي على النص بعدًا روحانيًا خاصًا. كما أنّ استحضار سور بعينها، لها مكانة متميزة في الوجدان الإسلامي، يعكس ثقافة الشاعر القرآنية وعمق ارتباطه بالكتاب الكريم، حيث يربط بين الشعر والقرآن في سياق واحد قائم على التذكير والوعظ. ومن خلال هذاالتوظيف، يظهر كيف جعل الشاعر من النص القرآني مرجعًا ورافدًا لشعره، يستمدّ منه القوة الروحية ويؤكد حضور البعد الديني في تجربته الإبداعية.

3.2 . الحـــــــــج

يقول تعالى: **"وَأَذِّنْ فِي النَاسِ بِالحَجِ يأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍ عَمِيقٍ"**[16].

يُعَدّ الحجّ من أركان الإسلام العظمى التي فرضها الله على عباده المستطيعين، وهو عبادة تجمع بين المشقة البدنية والعظمة الروحية، إذ يقف المسلم في أقدس البقاع متجردًا من الدنيا، مقبلًا على الله وحده. وتكمن عظمة هذه الفريضة في كونها سبيلًا لتكفير الذنوب وتطهير النفس من الأدران، وتجديد العهد مع الخالق سبحانه. وقد التفت الشاعر ابن مسايب إلى هذه القيمة التعبدية السامية، فعبّر في شعره عن فضل الحج ومكانته، محثًّا على أدائه، لما يحمله من أجر عظيم وأثر عميق في وجدان المؤمن وسلوكه.

فيقول[17]:

لو صبت كلّ عام نزور مع الزايرين

مكّة وروضة المختـــــــــــــــار

لو صبت كل عـــــام نشاهـــــــــد

مكّة وروضة العدنانـــــــــــي

في هذين البيتين يعبّر ابن مسايب عن توقٍ عميق ورغبة صادقة في أداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة، إذ يكرّر تمنيَه بأن يكون مع الزائرين إلى مكة المكرمة، حيث البيت الحرام، وإلى روضة النبي المختار صلى الله عليه وسلم. إنّ هذا التكرار لعبارة "لو صبت كل عام" يبرز شدة شوقه وحرارة حنينه إلى تلك المشاعر الإيمانية التي لا يضاهيها شيء. ويكشف هذا النص عن قيمة دينية محورية في شعر ابن مسايب، وهي التعلّق بالحج وزيارة الحرمين الشريفين، باعتبارهما مصدرًا للنقاء الروحي والسمو الإيماني. كما يظهر في البيتين البعد القيمي المرتبط بالحبّ العميق للنبي العدناني صلى الله عليه وسلم، حيث يربط الشاعر بين الحج والزيارة النبوية في وحدة وجدانية وروحية، تعكس مدى حضور الشعائر والرموز الإسلامية في تجربته الشعرية.

ويواصل قوله[18]:

لو صبت كل عـــــــــــام نجاور

مكة وقبر سيد أسيـــــــــادي

في هذا البيت يعبّر ابن مسايب عن أسمى أمانيه المتمثلة في مجاورة مكة المكرمة والمرابطة بجوار قبر النبي صلى الله عليه وسلم، حيث يصفه بـ "سيد أسيادي"، تعبيرًا عن محبته العميقة وتقديره العظيم لمقامه الشريف. فالبيت يعكس قيمة دينية بارزة تتمثل في التعلق بالديار المقدسة، باعتبارها موطن الطهر والسكينة، ومهوى أفئدة المؤمنين. كما يجسد المعنى القيمي للحب النبوي والارتباط الروحي بالرسول، إذ يرى الشاعر أن المجاورة بجوار قبره شرف عظيم وغاية يتمنّاها المرء كل عام. ومن خلال ذلك يتجلّى البعد الوجداني والإيماني للحج وزيارة الحرمين الشريفين كقيمة راسخة في قصائد ابن مسايب، توحّد بين حب الله وحب رسوله في إطار تجربة شعرية دينية صادقة. ويقول أيضا[19]:

من صابني نشـــــاهد مكّـــــــة

مرّة أخرى في طيب حياتـــــــي

ونقبّل الحجر للبركـــــــــــة

وننطوفها طواف بذاتـــــــي

في هذين البيتين يعبّر ابن مسايب عن شوقه العارم إلى إعادة زيارة مكة المكرمة في حياته، معتبرًا ذلك من أعظم النعم وأطيب ما يمكن أن يبلغه المؤمن. ويظهر البعد القيمي للحج من خلال إشارته إلى تقبيل الحجر الأسود طلبًا للبركة، وهو فعل يعكس تعظيم شعائر الله وامتثال سنّة النبي صلى الله عليه وسلم. كما يصف مشهد الطواف حول الكعبة باعتباره عبادة يشارك فيها الجسد والروح معًا، حيث يتجلّى التواضع والخضوع بين يدي الخالق. وهكذا تكشف الأبيات عن قيم دينية عميقة في شعر ابن مسايب، أبرزها التعلق بالشعائر المقدسة، وتعظيم معالم الحج، والارتباط الروحي بالبيت الحرام، بما يجعل التجربة الشعرية عنده صورة صادقة للشوق الإيماني والحنين الروحي إلى أقدس البقاع. تظهر هذه الأبيات بجلاء ما يكنّه الشاعر من شوق عارم وحنين صادق لزيارة البقاع المقدسة، كما تعكس حرصه على التوسل إلى الله سبحانه وتعالى وطلب مغفرته عما سلف من الذنوب والمعاصي، في تجلٍ واضح لنزعته التائبة وروحه المتعطشة للتطهر والسمو الإيماني.

4.2. اثبات البعث والنشور بعد الموت

يعمد الشاعر إلى تناول موضوع البعث والنشور بعد الموت بأسلوب وعظي يتسم بالجدية والرهبة، فيذكّر بحقيقة الآخرة وما فيها من حساب وجزاء، ليجعل من شعره وسيلة للتنبيه إلى فناء الدنيا وضرورة الاستعداد ليوم الميعاد. ومن خلال ذلك، لا يكتفي الشاعر بالخطاب الإرشادي، بل يوظّف تجربته الشعرية لترسيخ الإيمان بالمعاد والدعوة إلى التمسك بالاستقامة واليقين بوعد الله الحق.

فيقول[20]

في يوم الوعـــد والوعيـــــد
يوم تفنـــى وتبعث الجثة حيّة
ونرى في المحشر العبيـــــد
حفاة عـــــــراة واقفيـــــن

في هذه الأبيات يرسم ابن مسايب مشهدًا حيًّا ليوم القيامة، حيث يذكّر بـ اليوم الموعود الذي تفنى فيه الأجساد ثم تُبعث من جديد للحساب. ويعتمد الشاعر على تصوير مؤثر يجمع بين الرهبة واليقين، إذ يصف الناس وهم في المحشر حفاة عراة، واقفين ينتظرون الحكم الفصل. هذا التصوير يعكس إيمانًا راسخًا بالبعث والنشور، ويؤكد على أن الدنيا زائلة وأن المآل الأخير هو الوقوف بين يدي الله تعالى. ومن خلال هذا المشهد القوي، يوظف الشاعر البعد الوعظي والتحذيري في شعره، لحثّ السامع على التوبة والاستقامة، والتذكير بحقيقة المصير المحتوم الذي لا مهرب منه. ويواصل قوله في نفس القصيدة(19):

قادر فعال برحمته يحم جســـدي
ويهنييني من العـــــــــذاب
ويؤنسني ليلة نمسي وحـــــــــدي
في اللّحد مجاور التـــــراب
حين يجيني الالسؤال يلغى لي سيدي
ينطّقني بالجـــــــــواب

في هذه الأبيات يبرز ابن مسايب إيمانه العميق برحمة الله تعالى وقدرته، فهو يصف الله بـ القادر الفعّال الذي يحمي جسده برحمته ويجنّبه العذاب. كما يعبّر عن رجائه في أن يأنس بوحدة القبر، حيث يستبدل وحشة اللحد بقرب ورحمة الله. ويصل الشاعر إلى لحظة السؤال في القبر، فيصوّر يقينه بأنّ الله سيوفّقه إلى الجواب الصحيح، فينجّيه من الفتنة. تعكس هذه الأبيات قيمًا دينية محورية تتمثّل في الرجاء في رحمة الله، والخوف من العذاب، واليقين بالبعث والسؤال بعد الموت، كما تكشف عن نزعة وجدانية صادقة تُحوّل الشعر إلى وسيلة للتعبير عن الخوف والرجاء في آن واحد. فالشاعر يحاول تصوير المصير الذي ينتظر الإنسان بعد انقضاء أجله، ويقترن كلّ هذا على الإنسان بفعل الخيرات وترك المنكرات فمن عمل خيرا كان سعيدا في الآخرة ومن اتبع الشّهوات وملذّات الدنيا بات شقيّا.

ويقول في هذه الاخيرة (20):

راضيهم يفوتوه سعيـــــــــــــد
ولّي شقى يكون على قلبه كيّة
ينضرب بمقامع الحديـــــــــــد
في يدهم يسلم سلام ملقيـــه

ينظر ويشاهد العجب من ذاق المـــوت

ما بقى حـــــد يرتجـــــاه

في هذه الأبيات يرسم ابن مسايب صورة قوية لمشهد الجزاء الأخروي، حيث يقسّم الناس إلى فريقين: فريق السعداء الذين رضي الله عنهم فنالوا الفوز والنعيم، وفريق الأشقياء الذين يلاقون العذاب جزاءً لما اقترفوه. ويستحضر الشاعر صورًا مخيفة مثل الضرب بالمقامع الحديدية، ليوضح شدة العذاب الذي ينتظر العصاة. كما يبرز البعد الوعظي حين يشير إلى أن من ذاق الموت انقطعت عنه كل آمال الدنيا ولم يعد له رجاء إلا بما قدّمه من عمل صالح. ومن خلال هذه اللوحة، تتجلى قيمة العدل الإلهي ومبدأ الثواب والعقاب، إلى جانب الدعوة إلى التوبة والاستقامة، وهو ما يجعل شعر ابن مسايب وسيلة للتذكير بمصير الإنسان بعد الموت.

3. خاتمة

تجلى في شعر ابن مسايب ملامح واضحة للبعد الديني، إذ جعله محورًا أساسيًا لتجربته الشعرية وركيزة لبنائها الفني والفكري. فقد استحضر أسماء الله الحسنى وصفاته، وجعل منها منطلقًا لإظهار تعلقه بالله تعالى ورجائه في رحمته وخوفه من عذابه، كما وظّف آيات قرآنية وأسماء سور مباركة ليضفي على شعره قدسية وروحانية. ويتناول في نصوصه قضايا مركزية مثل التوبة، والاستعداد للآخرة، والبعث والنشور، وما يتبعه من حساب وثواب وعقاب، معتمدًا لغة وعظية مؤثرة وصورًا شعرية حيّة تستحضر مشاهد الموت والقبر والقيامة. كما برزت في قصائده قيم التعبّد الكبرى كالحج وزيارة البقاع المقدسة، والتعلق برسول الله صلى الله عليه وسلم ومحبته. ومن خلال هذه الجوانب، يتضح أن شعر ابن مسايب لم يكن مجرد تعبير فني، بل خطابًا دينيًا إيمانيًا يجمع بين الوعظ والتذكير، ويجسّد تجربة روحية عميقة جعلت من شعره مرآة لعقيدته ووسيلة لترسيخ القيم الإسلامية في النفوس.

إحالات البحث

[1] بلقيس أحمد ومرعي توفيق، الميسر في علم النفس التربوي، دار الفرقان للنشر، عمان، الأردن، سنة 1998م، ص 453

[2] ابو جحجوح يحي محمد ،القيم البيئية المتضمنة في كتب المرحلة االعدادية رسالة ماجستير فلسطين غزة ، 1999 ، ص 13

[3] ينظر : سلوت نور السيد ،مفاهيم القيم المتضمنة في االناشيد المتضمنة لطلبة المرحلة االساسية رسالة ماجستير،فلسطين غزة 2005، ص 45.

[4] ديوان ابن مسايب، جمع وتحقيق: محمد بن الحاج الغوثي بخوشة، نشر ابن خلدون، تلمسان(الجزائر)سنة 2001،ص127.

[5] المصدر نفسه: ص 128.

[6] المصدر نفسه: ص 129

[7] المرجع نفسه، ص158

[8] المرجع نفسه، ص158

[9] المرجع نفسه، ص 159.

[10] سورة الأعراف، آية 180

[11] ديوان ابن مسايب، المرجع السابق، ص26

[12] لمرجع نفسه، ص28

[13] المرجع نفسه، ص70

[14] المرجع نفسه، ص71

[15] المرجع نفسه، ص73

[16] سورة الحج، آية27

[17] ديوان ابن مسايب، المرجع السابق،ص100

[18] المرجع نفسه، ص120

[19] المرجع نفسه، ص150

[20] لمرجع نفسه، ص117

مراجع البحث

- أبو جحجوح يحي محمد ،القيم البيئية المتضمنة في كتب المرحلة الإعدادية رسالة ماجستير فلسطين غزة ، 1999 .
- بلقيس أحمد ومرعي توفيق، الميسر في علم النفس التربوي، دار الفرقان للنشر، عمان، الأردن، سنة 1998م .
- سلوت نور السيد ،مفاهيم القيم المتضمنة في الأناشيد المتضمنة لطلبة المرحلة الأساسية رسالة ماجستير، فلسطين غزة 2005.
- محمد بن مسايب : ديوان ابن مسايب، جمع وتحقيق: محمد بن الحاج الغوثي بخوشة، نشر ابن خلدون، تلمسان (الجزائر) ، 2001.